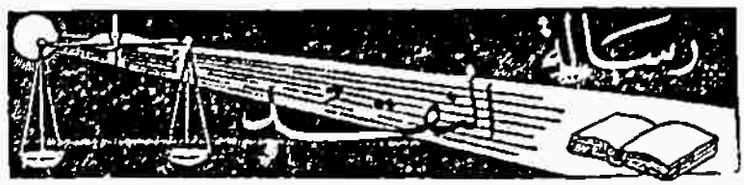

« طفولة نهـــر »

لنزار قباني

للأستاذ أنور المعـــداوي

نزار قباني ؟ . . أين كان هذا الشاعر وأين كنت ؟ ! ما أكثر ما يقع في يدي من دواوين الشعر في هذه الأيام ، فلا أكاد أقبل عليها حتى أعرض عنها . . إلا هـذا الديوان ! لقد لقيت صاحبه منذ شهر لأول مرة ، وأسمعني بعض شعره لأول مرة ، ولم أشأ يومئذ أن أقطع برأي في فنه خشية أن يكون قد قدم إلى خير قصائده . . أما الآن ، فأستطيع وأنا مطمئن أن أقدم هذا الشعر إلى الناس . . وأن أقدم صاحبه .

وقبل أن أضع هذه المجموعة الشعرية فوق مشرحة النقد ، أقول إنها تثير مشكلة طال حولها الجدل وسوف يطول ، ما دام هناك أناس ينشدون الفن للفن ، وأناس ينشدون الفن للمجتمع . أما أولئك فهم الذين يفهمون الفن وأصوله ، وعلى أي الدعائم يجب أن تقام . وأما هؤلاء فلا يريدون للفن إلا أن يسير في ركاب المجتمع ولو تنفس برئتين صناعيتين ، غافلين عن أن رسالة الفن ما هي إلا صدق التعبير عن الحياة ، التعبير عما فيها من جمال وقبح من تناسق وشذوذ ، من خير وشر ، من حرية وقيود !

يقول من لا يفهمون رسالة الفن إن « طفولة نهر » ما هو إلا صلوات فكر في محراب الجسـد ، أو صلوات روح ، أو صلوات شعور . . وسأقول أنا إنه صلوات فن ؛ وحين يرتفع صوت الفن بالصلاة يجب أن تخمـد كل الأصوات ! إن الدفاع هنا ليس دفاعاً عن صاحب هذا الشعر ولكنه دفاع عن الفن . . إن الفن الصادق لا يعرف القيود ، ويوم يتشح الفن بغلالة واحدة من غلائل النفاق الاجتماعي فقل إنه قد انحرف عن الجوهر الأصيل في رسالته ، وهو أن يعبر عن الحياة فيصدق في التعبير ! . . عش في أعماق الحياة ، واستخدم كل حواسك في تذوق هذه الأعماق فإذا استطعت أن تعبر في صدق عن انعكاس الحياة على حواسك ووقعها على شعورك فقد أنتجت فناً ؛ وبهذا المقياس نستطيع أن ننظر إلى « طفولة نهر » وإلى كل أثر فني تبدعه القريحة ! لقد كنت أود أن أطيل الدفاع عن رسالة الفن ، ولكن الشاعر سبقني فدافع عن شعره في كلمات صادقة حين قال : « الشعر يحيط بالوجود كله . . وينطلق في كل الاتجاهات فترسم ريشته المليح والقبيح ، وتتناول الترف والمبتذل ، والرفيع والوضيع . . ويخطىء الذين يظنون أنه خط صاعد دائماً ، لأن الدعوة إلى الفضيلة ليست مهمة الفن ، بل مهمة الأديان وعلم الأخلاق . . وأنا أؤمن بجمال القبح ، ولذة الألم ، وطهارة الاثم ، وهي كلها أشياء صحيحة في نظر الفنان . يقول كروتشه في نقد المذهب الأخلاقي في الفن : إن العمل الفني لا يمكن أن يكون فعلا نفعياً يتجه إلى بلوغ لذة أو استبعاد ألم ، لأن الفن من حيث هو فن لا شأن له بالمنفعة . وقد لوحظ من قديم الأزمان أن الفن ليس ناشئاً عن الإرادة ، ولئن كانت الإرادة قوام الإنسان الخير فليست قوام الإنسان الفنان ؛ فقد تعبر الصورة عن فعل يحمد أو يذم من الناحية الخلقية ، ولكن الصورة من حيث هي صورة لا يمكن أن تحمـد أو تذم من الناحية الأخلاقية ؛ لأنه ليس ثمة حكم أخلاقي يمكن أن يصدر عن إنسان عاقل ويكون موضوعه صورة . إن الفنان فنان لا أكثر ، أي إنسان يحب ويعبر . ليس الفنان من حيث هو فنان عالماً ، ولا فيلسوفاً ، ولا أخلاقياً . وقد تنصب عليه صفة التخلق من حيث هو إنسان ، أما من حيث هو فنان خلاق فلا نستطيع أن نطلب إليه إلا شيئاً واحداً هو التكافؤ التام بين ما ينتج ، وما يشعر به »

لقد وفق نزار قباني في عرض قضية الفن في هذه الكلمات الصادقة التي تخيرتها من كثير . وحين استشهد برأي كروتشه ، وهو رأي يقطع خط الرجعة على الرجعيين . . وحين نفذ إلى مكامن الهدف بهذه الإصابة البارعة في قوله : « ولو صح لنا أن نقبل ما زعمته المدرسة الأخلاقية في الفن لمات الفن مختنقاً بأبخرة المعابد . . ولوجب أن نحطم كل التماثيل العارية التي نحتها ميشيل أنجل ، والصور البارعة التي رسمها رفائيل ، لأنها إثم يجب ألا تقع عليه العين ؛ ولو ذهبنا مع أشياع هذه المدرسة إلى حيث يريدون ، لوجب أن نخرج من حظيرة الشعر الجيد قصيدة النابغة التي قالها في زوجة النعمان

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقتنا باليد

ولكان علينا أن نملن النابغة ، ونعتبره ضالا لا يستحق أن نقرأ سيرته وأشعاره ! »

أنا مع نزار قباني ولو وقفت وحدي إلى جانبه ، وسأصغي إليه بكل جوارحي حين يهمس في قصيدته « حلمة » :

يا حرف نار سابحاً في بركتي عطور
يا كلمة مهموسة مكتوبة بثغور
حمراء ، بل حمراء ، بل لونها شعوري
أم قبلة تجمدت في نهدك الصغير
مظلة شقراء فوق قصوة الهجير
إبريق وهج عاتق يهضبتي مرمور
أم أنت شباك هوى مطرز الستور
فراشة محروقة الجنح على غدير
دافئة كأنها . . مرت على ضميري

هكذا تمضي أوزانه وقوافيه ، متفقة والجو الذي يتنفس فيه شعره ، جو الأوزان القصيرة والقوافي الراقصة ، أما الصورة الوصفية فتستمد بذورها من خصوبة الحقل الشعري واتساع مداه . . . ومن هنا تستمد الوثبة الشعرية قوتها من وثبتين أخريين ، هما الوثبة الشعورية والوثبة الموسيقية .

تعال نستمع له مرة أخرى في قصيدته « وشوشة » :

في ثغرها ابتهال يهمس لي تعال
إلى انفتاق أزرق حدوده المحال
نشرد تياري شذا — لم يخفقا ببلال
لا تستحي فالورد في طريقنا تلال
ما دمت لي مالي وما قيل وما يقال !
وشوشة كريمة سخية الظلال
ورغبة مبحوحة أرى لها خيال
على فم يجوع في عروقه السؤال

هنا ظلال من النفس تلتقي بظلال من الحياة ، وبضوء من هنا وضوء من هناك يتم العمل الفني ، مستمداً خطوطه من التجربة الشعورية ؛ من وقدة العاطفة واشتعال الوجدان . . أرأيت إلى الرغبة المبحوحة ؟ الرغبة التي تتثنى فلا تقوى على الانطلاق ؟ الرغبة التي تريد أن تهتك حجب الصمت ولكنها بحت من التردد والتهيب والإحجام ؟ الرغبة التي لم يبق منها على الفم والإخيال يلوح ثم يختفي ؟ وأي فم ؟ فم يجوع السؤال في عروقه . . ولا يبوح !

ويحلق الفكر في آفاق من رهبة الفناء ، وتهوم الروح في أودية النسيان التي يبلى فيها كل جديد ، ولكنها تهويمات لا تخلو من يقظة تومض تحت الرماد ، وتلتمس العزاء في خدعة الخلود . . . وتكتمل الألوان في الصورة المنتزعة من معرض الحياة . أما الإطار فمن صنع الخيال السابح وراء الوهم ، المتشوق إلى ارتياد المجهول ، وتمضي التجربة الشعورية إلى منتهاها حيث يقول في قصيدته « سؤال » :

تقول : حبيبي إذا ما تموت ويدرج في الأرض جثمانها
إلى أي شيء يصير هوانا أيبلى كما هي أجسادنا ؟
أيتلف هذا البريق العجيب كما سوف تتلف أعضاؤنا ؟
إذا كان للحب هذا المصير فقد ضيعت فيه أوقاتنا !
أجبت ومن قال إنا نموت وتنأى عن الأرض أشباحنا ؟
سنحيا . . وحين يعود الربيع يعود شذانا وأوراقنا
إذا يذكر الورد في مجلس مع الورد . . تسرد أخبارنا !

وحين يطول الانتظار ، ويعصف القلق بجمال الرؤى والطيوف ويتوثب الشوق الملح إلى القادم الممعن في إبطائه ، تكون النفس الإنسانية في ارتقابها ولهفتها قد أنكرت كل شيء ، وكفرت بكل شيء . . . استمع له يصف لحظة انتظار :

جمت وجاع المنحدر ولا أزال أنتظر
أنا هنا وحدي على شرق رمادي الستر
مستلقياً على الذرى تلهث في رأسي الفكر
وأرقب النوافذ الزرق على شوق كفر

هل أحسست الفكر حين تلهث ، والشوق حين يكفر ؟ ! وحين يقبل الحبيب الغائب ، تقبل معه الدنيا ، وتقبل الذكريات تشق طريقها من وراء الزمن . . . ويقبل الصبا بجنونه وأحلامه وأوهامه :

قالت صباح الورد .. هذا أنت صاحب الصفر
ألا تزال مثلما كنت غلاماً ذا خطر ؟
تجملني على الثرى لعباً . . وتقطيع شعر
فإن نهضنا كان في وجوهنا ألف أثر !
قلت لها الله ما أكرمها تلك الذكر !
أيام كنا كالعصافير ... غناء وسمر

تسابق الفراشة البيضاء ... ثم تقصر
وتكسر النجوم ذرات ... وتحمى ما انكسر
فيستحيل حولنا الغروب شلال صور ...
حكاية نحن ... فعند كل وردة خبر

إن مرة سئلت ، قولى : نحن دورنا القمر !

هنا وفى كثير من القصائد الأخرى انزار قبانى ، نلمس أن اكتمال الوحدة الفنية مرجعه إلى تسلل التجربة الشعورية ، وتناسق الظلال المنعكسة من النفس والحياة .

وأود أن ألفت النظر إلى أن هذا الشاعر يصوغ معانيه أحياناً فى ألفاظ قد تبدو لأصحاب المدرسة المادية فى التعبير وكأنها قد استخدمت فى غير مواضعها ؛ وهى تبدو لهم كذلك لأنهم يعيشون فى رحاب الظلال المادية للألفاظ ، ولو عاشوا فى رحاب ظلالها النفسية لوجدوا كل شىء فى موضعه من الشعر ، لأنه فى موضعه من الشعور ... إن الشعر ما هو إلا ترجمة صادقة للشعور الصادق ، فلا ضير من أن يستخدم فيه اللفظ الذى تتفق ظلاله وظلال النفس ، وتتسق إيحاءاته مع منطق الإحساس ! ومهما يكن من أمر فإن لمشكلة الظلال النفسية والمادية فى اللفظ قضية شغلت القدماء كما شغلت المحدثين ، وهى قضية سنعرض لها فى مقال نتناول فيه بالنقد أصحاب المدرسة المادية فى التعبير قديماً وحديثاً أولئك الذين لا ينظرون إلى الألفاظ إلا من خلال هيا كلها العظمية!

كل ما آخذه على صاحب « طفولة نهد » ، هو تلك القوالب النثرية التى يصب فيها شعره أحياناً ، وما يرد فى بعض أبياته من ألفاظ ابتذلت من كثرة الاستعمال ، مما يعصف بجمال القالب الشعرى ، ويذهب بأثر الإيقاع الموسيقى . استمع له مثلا فى هذين البيتين :

ما دمت لى سر السماء معى وهذه الأقمار أقمارى
وأنجم السماء لى مئزر وفوق جفن الشرق مشوارى

إن كلمة « مشوارى » هنا كلمة سوقية لا تتفق أبداً وهذا الجو الشعرى الذى عاشت فيه ، ولو وردت فى النثر لما استسغتها ، فما بالك بالشعر ؟

واستمع له مرة أخرى فى هذين البيتين :

هو الدفء لا تذعرى إن رأيت قميصك نهب تدفع قه
فما عدت يا طفلتى طفلة سيهمى الشتا فيمة بعد فيمه

نهب تدفع قة ؟ ! . إضافتان ثقيلتان على السمع ، لا تكاد تطيقهما الأذن المادية ، فما بالك بالأذن الموسيقية ! ألا تحس هنا أن القالب قد بدأ أقرب إلى النثر منه إلى الشعر ؟

واستمع له مرة ثالثة فى هذين البيتين :

انى تحاور الهوى وأمضى أنا فى السحاب وأنت فى الأرض
غورى مع الشيطان لا أسف ولتبتلعك زوابع البغض

لست أدرى كيف تحتمل الصياغة الشعرية كلمة « غورى » هذه .. لقد اهتز صرح الجمال الفنى فى البيتين تحت وطأة هذه الكلمة !

مآخذ قليلة كنت أرجو أن يخلو منها هذا الديوان ، ومهما يكن من أمر فإنها لا تمنعنى من القول بأن نزار قبانى شاعر .. وشاعر موهوب .

أنور المعداوى

ظهر حديثاً كتاب :

من يوميات محام

مجموعة ٢

للأستاذ عبده حسن الزيات

المحامى لدى محكمة النقض والإبرام

ثمن النسخة ٢٠ قرش

المؤلف أيضاً :

من يوميات محام (مجموعة أولى) ٤٥
سعد زغلول من أقضيته ٣٠
حكايات من الهند (مجموعة أولى) — ترجمة نفدت
حكايات من الهند (مجموعة ثانية) — ترجمة ١٧
حكايات من الصين ترجمة ١٠
اللصوص لشلر ترجمة ... ... نفدت

تطلب من جميع المكتبات

ومن مكتب المؤلف بشارع ابراهيم باشا رقم ١٠ بالقاهرة

تاريخ الأدب العربي

للأستاذ الزيات

نفدت الطبعة العاشرة من هذا الكتاب

أما الطبعة التي تباع الآن في البلاد العربية

فاحترس منها

أنها طبعة مزيفة فيها النقص والخطأ والتحريف

والتشويه زيفها أهل الكتبيين في القاهرة

انتظر الطبعة الحادية عشرة قريباً

طبعة أنيقة صحيحة فيها زيادات كثيرة

ولاسيما في العصرين العباسي والحديث

مبادئ

في القضاء الشرعي

للأستاذ الزين القاضي

كتاب يفيد القاضي والمحامي

وكل مشتغل بالحقوق والفقه

يقع في ٤٦٠ صفحة من القطع المتوسط

ويطلب في القاهرة من إدارة الرسالة ومن سائر المكاتب

ومن المنصورة من الأستاذ علي عبد الله

بمكتبة الشامي وثمنه ٣٠ قرشاً عدا البريد

سكك حديد الحكومة المصرية

مواعيد فصل الصيف

يتشرف المدير العام بأن يوجه نظر الجمهور إلى التعديلات التي أدخلت على بعض قطارات الاكسبريس والركاب بمناسبة فصل الصيف والتي ستنفذ ابتداء من أول مايو سنة ١٩٣٨ كالمبين بالجداول التي ستعلق بالمحطات والمعدة للبيع بمكاتب صرف التذاكر.

المدير العام

عبد المجيد بدر